

التوظيف السياسي والاجتماعي للفكاهة في العصر المملوكي (دراسة وتحليل)

جهانگیر امیری (الكاتب المسؤول)*

مرضیه محمدی**

فاروق نعمتی***

الملخص

ليس الأدب الفكاهي حكراً على العصر المملوكي، إذ إنّه لا يكاد يخلو عصرٌ من هذا الغرض الشعري، ولكنّ الفكاهة في تلك الفترة بالذات لقيت رواجاً لم يسبق له نظيرٌ حتى أصبحت سمةً بارزةً من سمات العصر. ثمّ أنها خرجت في ذلك العصر من إطارها الضيق ودخلت في معترك الحياة واحتكت بالواقع الذي عاشه المجتمع المملوكي. ومن هذا المنطلق أخذت الفكاهة في تلك الآونة طابعاً شعبياً يعكس ما عاناه الشعب من آلام ومحن مصوراً الظروف المعيشية القاسية التي خيّمَت على المجتمع المملوكي. عُنى شعراءُ الفكاهة في العصر المملوكي بالقضايا السياسيّة والاجتماعية عنايةً بالغة حيث كانوا يسعون من وراءها إلى إصلاح السياسات الظالمة وتقويم المسارات الخاطئة وتحسين أوضاع المجتمع. ومن أبرز المضامين التي يحويها الشعر الفكاهي في العصر المملوكي هي ظلم الحكام وفساد القضاة وتدني الأخلاق العامة والفرق المدقع الذي يعيشه الشعب وأوضاع المجتمع المتردية والمصائب والأوبئة وما إلى ذلك من المظاهر الاجتماعية العسيرة. أمّا هذا البحث فإنّه يرمي إلى دراسة مضمونية للشعر الفكاهي في العصر المملوكي وإلقاء الضوء على ما يجري في ساحات المجتمع المملوكي من قضايا سياسيّة واجتماعيّة. ومن أهمّ النتائج التي توصلنا إليها من خلال البحث هو: أنّ للفكاهة في ذلك العصر مكانة فريدة لا تُضاهى، ووظيفة اجتماعيّة وسياسيّة هامّة قامت بتأديتها في أحسن وجهٍ ممكن. والمنهج الذي اعتمده في هذا البحث هو المنهج الوصفي - التحليلي الذي يتمّ التعويل عليه في الموضوعات الأدبية.

الكلمات الدليلية: الشعر الفكاهي، العصر المملوكي، الحياة السياسيّة، الحياة الاجتماعية، الفقر، فساد الحكام، الانهيار الخلقى.

*. أستاذ مشارك بجامعة رازی، کرمانشاه، ایران. gaamiri686@jmail.com

** . طالبة مرحلة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة رازی، کرمانشاه، ایران.

***. أستاذ مساعد بجامعة پیام نور، ایران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدي ناصري

تاريخ القبول: ١٣٩٣/١٢/٧ ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٦/١١ ش

المقدمة

تَمَّا لا غبار عليه أن للشعر في الأدوار الماضية وظيفة أشبه ما يكون بالوظيفة التي تمارسها وسائل الإعلام في العصور الراهنة، إلا أن الشعر في العصور السابقة كان عالقاً في كثير من الأحيان داخل جدران القصور المزخرفة لا يمثّل سوى حياة الملوك والأمراء وغيرهم من أهل البذخ والترف. (سليم، ١٣٧٧ق: ١٠٣) فلم يكن للشعر حينئذٍ علاقة وطيدة بحياة العامة وما يجري في ساحه المجتمع أو داخل بيوت الفقراء والمعوزين، ربّما لم نبالغ إذا قلنا بأن الشعر في الأعصار المنصرمة كان في أغلبه وسيلة للتسلية والمتعة. (شوكينغ، ١٣٧٣ش: ٩٥) فلا يعتبر الشعر في العصور الماضية مصدراً صالحاً لمطالعة الأوضاع الاجتماعية والسياسية إذ قلّمنا نجد شعراً في تلك الآونة يحمل في طياته ما يمس واقع حياة الشعوب ومعاناتها، وإذا كان ثمة شعراً يعكس جوانب من حياة العامة فإنه نادرٌ جداً لا يسمن ولا يغنى من جوع شيئاً. (بكري، ١٩٨٠م: ٧١) أمّا الشعر في العصر المملوكي ظهر بمظهر جديد ودخل في طور حديث لم يعهده الشعر العربي في الأعصار السابقة، حيث غادر الشعر في هذا العصر، القصور الفخمة وتغلغل في بيئة جديدة يعيشها أبناء الشعب بآلامهم وآمالهم شأن طائر سجين يهرب من قفصه الذهبي وينطلق في أجواء السماء الرّحبة مرفرفاً بجناحيه محلّقاً في الآفاق المترامية. (موسى باشا، ١٤٠٩ق: ٥٥)

فالحرية التي حظى بها الشعر في ذلك العصر رشّحته ليكون مصدراً خصباً لدراسة الأوضاع العامّة في العصر المملوكي. (بكري، ١٣٨٣: ٦٤) اكتسب الشعر المملوكي في ضوء الظروف الجديدة صبغة شعبية حيث إنه توغلّ في أعماق حياة الشعب واحتكّ بأحداث المجتمع المملوكي راصداً آلام الناس وطموحاتهم عاكساً مجريات العصر وأحداثه. (أميرى ونعمتى، ١٣٩١ش: ٢٦) وللفكاهة في هذا العصر مكانة رفيعة وشأن سام. رسم شاعر الفكاهة في ذلك العصر لنفسه فضلاً عن الترويح عن النفس والمتعة غاياتٍ سياسية واجتماعية مستخدماً الأدب الساخر كآلية استمدّها للوصول إلى أهدافه المرجوة.

وكان في اختيار الشاعر المملوكي الفكاهة أكبر دليل على ذكائه المتوقع؛ ذلك لأنّ

الفكاهة تتميز عن غيرها من الفنون بكونها تمتلك أكبر طاقة فنيّة ودلاليّة لتصوير ما يعانيه الشعب من حياة البؤس والشقاء. (يوسف، ٢٠٠٣م: ٣٣) ممّا يسترعى الانتباه أنّ شعراء السخرية في ذلك العصر مزجوا بين المتعة والعتاب، وأبدعوا فناً يفتقد إلى حدّ كبير، لذعة العتاب ووجع الشكوى ويتمتع في الوقت ذاته بجلاوة الفكاهة ورقّتها وظرفها ممّا جعل الناس يرحّبون به ويعيرونه بالغ اهتمامهم. (أميرى ونعمتى، ١٣٩١ش: ٢٧) لقد تفتّن الشاعر المتفكّه أنّه إذا وجّه اللوم والنقد بأسلوب يتسم بحفّة الفكاهة ومُنعتها يأمن إذاً العقاب ويسلم من الأخطار التي تهدّد حياته بالخطر، فكثرت الفكاهة وراجت رواجاً منقطعاً عن النظرير. (موسى باشا، ١٤٠٩ق: ٧٧) وممّا زاد في انتشاره أنّ الشعب المملوكي بمن فيه الشعراء يواجه أقسى ظروف الحياة وأتعسها من المجاعات والحروب والأوبئة والضرائب التي أثقلت كاهله وجعلته في حالة يرثى لها. فقد جفّت قريحة الشعراء وانحطّت مواهبهم الشعريّة نتيجة الكوارث المحدقة بهم فأعجبوا بالسخرية التي لا تتطلّب منهم المزيد من الجهد والموهبة والتضحية، حيث تجعلهم بمعزل عن الأخطار والتحديات. إذاً كرّسوا طاقاتهم الأدبية في الفكاهة وصبّوا مجهودهم الشعري فيها. (العبادي، ١٩٨٦م: ٤٨)

وأما الأسئلة التي يدور حولها هذا البحث هي كالتالي:

- ١- ما هي الميزات التي يتميّز بها الشعر الفكاهي في العصر المملوكي؟
 - ٢- كيف كانت مكانته في ذلك العصر؟
 - ٣- ما هو الدور الذي قام به في العصر ذاته؟
 - ٤- ما هي أبرز القضايا التي تناولها هذا الفنّ الشعري في تلك الفترة بالذات؟
 - ٥- ما هي أبرز المضامين الواردة في هذا الشعر في الحقبة نفسها؟
- مهما يكن من أمر فإنّ البحث يريد دراسة تحليليّة على الصعيد المضموني للشعر الفكاهي في العصر المملوكي الذي راج فيه هذا اللون من الشعر رواجاً كبيراً. وذلك في ظلّ الفرضية التي تقوم على القول بأنّ الفكاهة في ذلك العصر دخلت في معترك الحياة واحتكّت بالواقع المعاش للمجتمع آخذة على عاتقها التصوير الدقيق للأوضاع العامة بشيءٍ من النقد اللاذع وبأسلوب يشوبه العتاب والشكوى.

خلفية البحث

لم يتم لحدّ الان بحثٌ يقوم بدراسة الأدب الفكاھى ودوره فى تصوير الحياة السیاسیة والاجتماعیة فى العصر المملوكى، ولكن أعدت مقالات وأطروحات جامعیة تسلط الأضواء على جوانب متعددة من الحياة العامة فى عصر الممالیک؛ ومنها مقالة "التحامق فى الشعر المملوكى، دراسة وتحلیل؛ لجهانگیر أمیرى وفاروق نعمتى فى مجلة الجمعية الإیرانیة للغة العربیة وآدابها، العدد ٢٢" إذ یرمى هذا المقال إلى دراسة شعر التحامق ومضامینه وأسباب شیوعه فى العصر المملوكى. ومقالة "السخریة، مكانتها ومضامینها فى شعر رهى معیرى ومحمد مهدى الجواهرى، دراسة مقارنة؛ لجهانگیر أمیرى ورضا کیانى فى مجلة العلوم الإنسانیة الدولیة، العدد ٣/١٩" ومقالة "السخریة السیاسیة فى شعر دعبل الخزاعى؛ لجمال طالبى وآخرین فى الجمعية العلمیة الإیرانیة للغة العربیة وآدابها، العدد ٢٥" ومقالة "أسالیب استعمال الفكاهة فى التصاویر الفكاهیة لدى أحمد مطر؛ لیحیی معروف فى الجمعية العلمیة الإیرانیة للغة العربیة وآدابها، العدد ١٠"

جديرٌ بالذكر أن التحامق ضربٌ من الفكاهة إلا أنه كما سنوضحه فى محلّه إن شاء الله یختلف عنها باختلافاتٍ جوهریة. أما السخریة أو الازدراء مضمونٌ عامٌ یرد فى الأشعار الفكاهیة یرتبط إلى التشهیر والتعریض بالأشخاص لأسباب متعددة تكون أسباباً فردیة فى معظم الأحوال وهذا اللون الشخصى من الفكاهة قلماً نجد فى الشعر الفكاهى فى العصر المملوكى ذلك لأنّ الفكاهة فى ذلك العصر یمیل غالباً ما إلى نقد الأوضاع بنبرة عتابیة تشیر صدمة أو هزة داخل المجتمع ربّما تؤدّى إلى تحسین الأوضاع. بناءً على ذلك قلّ توجّه شعراء الفكاهة فى ذلك العصر إلى السخریة من الأشخاص التى لا طائل تحتها سوى التعریض على المواجهة بالمثل بل ترمى الفكاهة المملوكیة إلى التعریض برجال الحُكم الظالمین والأمراء الفاسدین وقضاة السوء وغير ذلك من ذوى مناصب رفیعة یرتفعون مناصبهم.

تحلیل الموضوع

نبذة عن الحياة السیاسیة والاجتماعیة فى العصر المملوكى
 إنّ لفظة "الممالیک" تسمیة أطلقت على مجموعة من العبيد اشتراهم الأیوبیون من

أسواق النخاس ووظفهم في شؤون العسكر والقتال، ولكنهم أطاحوا بالحكم الأيوبي بعد أن قويت شوكتهم وصاروا قوة لا تُطاق. سميت الدولة التي أشادها المماليك بالدولة المملوكية نسبة إليهم. (العبادي، ١٩٨٦م: ٥٢؛ العريني، ٢٠٠١م: ١٠٧) حفلت الدولة المملوكية بالمزيد من المصائب والويلات التي حوّلت حياة الشعب إلى كابوس مرّوع. خاضت الدولة المملوكية معارك دامية ضدّ الصليبيين والمغول. كان الغزاة المغول زحفوا إلى البلدان التي يحكمها المماليك واجتازوا الحدود إلا أنّ المماليك الأشواس صدّوا هجومهم العنيف بكلّ قوة وبسالة وكانت النكبة المغولية قد اجتاحت الكثير من البلدان في تلك الآونة. (أميرى، ١٣٨٨ش: ١٧)

لم يكن الغزو المغولي الخطر الوحيد الذي يهدّد دولة المماليك بل كان الصليبيون يهجمون على تلك الدولة الفتية بين فينة وأخرى. وذلك لأهداف اقتصادية ودينية هامة، وربما كان استرجاع بيت المقدس هو الغاية الرئيسية التي يسعى وراء تحقيقه حملة الصليب بجهد لا يعرف الكلل ولا الملل. (الركابي، ١٩٩٦م: ٧١) ولكن ظلّ المماليك يُدافعون عن دولتهم على قدم وساق، فلم يدّخروا جهداً للدّود عن حماهم، فإنّهم سهروا على حماية دولتهم التي تأسست في ظلّ رؤية إسلامية عربية. (العبادي، ١٩٨٦م: ٦٠) إنّ الانتصارات التي حقّقها المماليك جعلت الشعراء يمدحونهم ويتغنّون بالحماس الرائع الذي أبدوه في حروبهم ضدّ الغزاة الأجانب ولكن لم تمنع هذه الانتصارات الشعراء من تصوير المصائب الناجمة عن المعارك أيضاً. فإنّ تكاليف الحروب الباهضة أرغمت المماليك على فرض ضرائب أثقلت كاهل الشعب لتمويل نفقات الحروب المكلفة. (العريني، ٢٠٠١م: ١٠٩) ومّا زاد الطين بلّة كثرة الكوارث الطبيعية التي كانت تحصد الأرواح يومياً. فالمجاعة، والقحط، والزلازل، والأوبئة حوّلت حياة الشعب إلى جحيم هائل. لقد انعكست الظروف المعيشية الصعبة على أخلاق المجتمع سلباً فساءت الأخلاق وطفغت الذنوب والآثام والرزائل على الفضائل وكثرت المسارات الخاطئة. (موسى باشا، ١٤٠٩م: ٨٣) فبطبيعة الحال مارس شعراء الفكاهة، الدور الذي تمارسه وسائل الإعلام في العصور الراهنة. فسجّلوا كل ما رأوا أعينهم وسمعت آذانهم من مشاهد مروعة وأحداث كارثية بأساليب الفكاهة.

بات أدب الفكاهة في ذلك العصر وكأنه أرشفة سُجِّلت في صفحاتها صوراً وأصداء عن الحياة السياسية والاجتماعية. المشاكل التي جثمت على صدر المجتمع المملوكي أفسدت قرائح الشعراء وهذت موهبة الإبداع والحلق لديهم حيث أدت إلى إشاعة الفكاهة وهي لون شعري لا تنحصر وظيفته في الإضحاك والتنفيس بل يُعطي أيضاً صورة واضحة صادقة عن معاناة المجتمع ومأساته. (ضيف، ١٩٩٨م: ١٧٤) وفيما يلي نستعرض نماذج من الأدب الفكاهي المتعلق بالعصر المملوكي الذي يعكس في طياتها أصداء واضحة للحياة في ذلك العصر.

أبرز معالم الفكاهة في العصر المملوكي

لقد أسلفنا توأماً للفكاهة لا تقتصر على العصر المملوكي دون غيره من العصور إذ أنّ العصور كلّها شهدت نماذج من هذا الفنّ بشكل أو آخر. إلاّ أنّه يمكن القول بأنّ الفكاهة في الأدوار السابقة أخذت طابعاً فردياً يحمل لوناً من السخرية والاستخفاف بالأشخاص لغرض المنافسة أو المخاصمة أو توفير أجواء ترفيهية تتناغم مع مجالس اللهو والمجون. ثمّ أنّ الفكاهة في الحقب الماضية تعيش بعيدة عن المجتمع ولا تولى اهتماماً بالقضايا السياسية والاجتماعية. فما إن دخلت الفكاهة العصر المملوكي حتّى شهدت تطوراً ملحوظاً شأن سائر الأغراض الشعرية في ذلك الظرف الزمني. فغدت تكتسب صبغة سياسية واجتماعية حيث تناولت القضايا التي تمسّ واقع الحياة المملوكية. مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الشعر الفكاهي في ذلك المقطع الزمني بات يكتنفه شيء من السخرية والعتاب جعله أشدّ لذعةً ومضاضةً. (أنس، ٢٠١٠م: ٥٨) ولا بدّ للذكر أنّ ثمة فوارق بين التحامق الذي شاع شيوعاً واسعاً في الحقبة المملوكية والفكاهة في الوقت نفسه. إنّ التحامق ضربٌ من الفكاهة يشترك معها في طابعه الهزلي والفكاهي إلاّ أنّه يختلف عنها بأنّه يسعى جاهداً لإضحاك المخاطبين بإعطاءه صورة هزلية كاريكاتيرية عن الشاعر تتمّ عن حماقته وبلادته أو تظاهره بهما على أقلّ تقدير. (إبراهيم، ١٩٥٨م: ٩١) والغاية التي ينشدها الشاعر المتحامق قد لامتت إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية بصلة بل تتمركز في الأغلب على خلق تصاوير فكاهية تساعد على الانغماس في غمار المجون

والخلاعة. (خربوش، ١٩٨٢م: ١٢٣) خاصةً في المجتمع الذي عانى أبناءه من معاناة الحياة وآلامها فظّلوا في أمسّ الحاجة إلى مضامين فكاهية مضحكة تزرع ابتسامةً على شفاههم وتخفّف بعض همومهم. أمّا الفكاهة فإنّها تقف على مستوى أعلى وأسمى من التحامق مادامت أنّها تُعنى بالقضايا السائدة على المجتمع فإذا كان هناك غرضٌ ترفيهي لها فهو يقع في الهامش وفي الدرجة الثانية لا يتصدّر أولويات الشاعر بتاتاً. (الخليلي، ١٩٧٩م: ٦٧) خُذ مثلاً في هذا المضمار يوضّح لك القارئ الكريم الفارق بين الفكاهة والتحامق. لقد أورد بديع الزمان الهمذاني في مقامته الساسانيةً أبياتاً كشاهدٍ على جنوح الشعراء في العصر المملوكي إلى ظاهرة التحامق وهي:

هذا الزمان مشئومٌ كما تراه غشومٌ
الحمقُ فيه مليحٌ والعقلُ عيبٌ ولؤمٌ
والمال طيفٌ ولكن حول اللئامِ يحومٌ

(الهمذاني، ١٩٦٢م: ٢٦٠)

من الملاحظ في الأبيات السابقة أنّ اهتمام الشاعر المتحامق ينصبّ في الأغلب فيجمع المال والثروة فاستخدم المتحامقون بضاعتهم الشعرية كأداةٍ تحقّق لهم مكاسب وأرباحاً ماديّة في الوسط الذي يتهافت أبنائه على الأشعار الفكاهية. خلاصة القول إنّ شعر التحامق لا يبالي في الوهلة الأولى بقضايا تهّم أبناء المجتمع. بل يصبّ الشاعر المتحامق جلّة اهتمامه فيما يتعلق بقضايا شخصية في ظروف تحوم حولها هالة من العبثية والإباحية. من هذا المنطلق أنّ التحامق لون من الفكاهة يأخذ في الأغلب طابعاً شخصياً أو ذاتياً بينما تكون الفكاهة التي نحن بصدد دراستها في هذا المقال ذات صبغةٍ سياسيّة واجتماعيّة حيث تعيش في نطاقٍ اجتماعي واسع آخذةً على عاتقها مسؤوليّات ترتبط بالفرد والمجتمع معاً. وفيما يلي نقوم استعراض الأسباب والعوامل التي أدّت إلى شيوع الفكاهة في العصر المملوكي.

النزعات الاجتماعية والسياسيّة للفكاهة

للفكاهة في العصر المملوكي دورٌ بارزٌ ومكانة متميّزة قلّما نجد لها لغرض شعري آخر

في الفترة ذاتها. (أميرى، ١٣٨٨ش: ١٢٣) كان الشاعر في ذلك العصر يرمز في أغلب الأحيان بأحداث صعبة مأساوية لا يستطيع احتمالها ولا يجرء في الوقت نفسه على المواجهة والرفض، فجعل الفكاهة أداة طيعة للتعبير عما يتجول في خاطره من مشاعر الرفض والاحتجاج دونما خوفٍ من أن يمسّه سوء أو مكروه. (بكري، ١٩٨٠م: ١٠٩) وفي هذا السياق صوّب شعراء الفكاهة سهام نقدهم الساخر إلى الحكّام والأمراء وكلّ من تقع على عاتقهم المسؤولية عن أوضاع المجتمع الرهيبة وفيما يلي نقوم بعرض نماذج بارزة من الأشعار الفكاهية التي تعكس الظروف السياسية والاجتماعية التي يرمز بها المجتمع المملوكي بادئين بن:

١. السخرية من الحكّام

احتلّ الازدراء بالحكّام حيزاً كبيراً من شعر الفكاهة في العصر المملوكي. انتقد الشعراء السلاطين الجائرين والحكّام الناهبين لممتلكات الشعب بأسلوب ساخر فكّه. فالشاعر "ابن عنين" رسم صورة كاريكاتيرية بريشته الشعرية عن سلطان معوج وكاتبه الأعمى ووزيره المحدودب ووالد دميمة الخلق وقائد جيش معتدّ بنفسه أخذته العزة بالإثم فتخيّل كيف تكون الحياة في ظلّ هذه الطغمة المشوهة؟! لا يطبق هذه الظروف القاسية سوى من يحترف العهر والدعارة والخداع:

فَدُ أَصْبَحَ الرِّزْقُ مَالَهُ سَبَبٌ	فِي النَّاسِ إِلَّا الْبَغَاءُ وَالْكَذِبُ
سُلْطَانُنَا أَعْرَجٌ وَكَاتِبُهُ	ذُو عَمَشٍ وَالْوَزِيرُ مُنْحَدِبٌ
وَصَاحِبُ الْأَمْرِ خُلُقُهُ شَرِسٌ	وَعَارِضُ الْجَيْشِ ذَاؤُهُ عُجْبٌ

(نقلًا عن: الصفدي، ١٩٦١م: ٢٨٩/٢)

وفي النموذج التالي خلق الشاعر المملوكي النابه صفيالدين الحلبي أجواء فكاهية عرّض من خلالها بالولاية الذين يظلمون الرعية ويُسَيِّئون معاملتها؛ تارة يتحدّث الشاعر عن ظلم الولاية وأخرى عن قصدهم لإصلاح الرعية. كيف يمكن أن يكون الظالم هو المصلح يا ترى؟! فتكمن الفكاهة في صلب هذه الازدواجية. إنّ الولاية في نظر الشاعر فئة ظالمة تظنّ وتدّعي أنها تُصلح الأمة ولكنها تفسدها. فيقول الشاعر ساخرًا منهم إنّما

يتمّ إصلاح الرعية بالعدل وليس بالظلم!:

رَعَى اللهُ قَوْمًا أَصْلَحُونَا بِجَوْرِهِمْ
وَعَادَةُ إِصْلَاحِ الرَّعِيَةِ بِالْعَدْلِ
عَرَفْنَا بِهِمْ حَزْمَ الْأُمُورِ وَلَمْ نَكُنْ
لِنَحْسَبْ حُسْنَ الظَّنِّ نَوْعًا مِنَ الْجَهْلِ

(الحلّي، ١٩٨٠م: ٣٧٥)

في المقطع الثالث يجعل الشاعر صفى الدين الحلّي لقب أحد الملوك "سيف الدين" مادة دسمة لخلق أجواء فكاهية رقيقة يكشف فيها النقاب عن وجه الحكّام الظالمين الذين لقبوا أنفسهم بسيف الدين ولكنهم لا يقطعون سوى أرزاق الرعية وأقواتها:

إِنَّ سُلْطَانَنَا الَّذِي نَرْتَجِيهِ
وَاسِعُ الْمَالِ ضَيْقُ الْإِنْفَاقِ
هُوَ سَيْفٌ كَمَا يُقَالُ وَلَكِنْ
قَاطِعٌ لِلرُّسُومِ وَالْأَرْزَاقِ

(نقلًا عن: أنس، ٢٠١٠م: ١٢٨)

بلغ "صفى الدين الحلّي" أنّ والي خراسان "ابن كبش" عُزل عن الحكم وحلّ مكانه "ابن ذئب" فلم يلبث الحلّي أن ينظم بيتاً يتمتع بفكاهة رائعة تستأنسها القلوب. يقول الحلّي في بيته إذا لم يستطع الرعية احتمال ظلم "ابن كبش" فكيف لها أن تتحمل ظلم ابن ذئب!؟:

رَعَا يَا مَا أَطَافُوا بِأَسِّ كَبِشٍ
مُحَالٌ أَنْ يُطِيقُوا بِأَسِّ ذَيْبٍ

(الحلّي، ١٩٨٠م: ٦٢٥)

٢. السخرية من عمّال الحكومة

شهد المجتمع المملوكي ظلم العمّال ونهبهم وعدوانهم، فراح المتفكّهون في ذلك العصر ينتقدونهم ويشوّهون وجوههم وينهالون عليهم بطعونهم التي غلّفوها بغلاف من الفكاهة والهزل. (ضيف، ١٩٩١م: ٧١) ها هو "البوصيري" الذي شهّر بالعديد من ذوى المناصب الرّفيعه في عصره، تفكّه في الأبيات التالية بعمّال الحكومة الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم فإنهم طغمة قذرة خبيثة لو سكنت الجنة لحوّلتها إلى الجحيم! هذه الطائفة الشريرة لوّثت البلاد كلّها بحيث لم يسلم بلد من خبثها وقذارتها وشيطنتها. شبهه "البوصيري" عمّال السوء بالشياطين التي دمّرت الآفاق برمتها، وإذا تخيلنا النجوم سها ما يُضرب بها الشياطين فلا بدّ أن تملأ السماء بالنجوم مادامت أنّ الآفاق مليئة

بالشباطين التي لا يُمكن قطع دابرها:

أرى المستخدمين مشوا جميعاً	على غير الصراط المستقيم
معاشر لو ولوا جنات عدن	لصارت منهم نار الجحيم
فما من بلدة إلا ومنهم	عليها كل شيطان رجيم
فلو كان النجوم لها رجوماً	إن خلت السماء من النجوم

(البوصيري، ٢٠٠٧م: ٣٤٥)

فرضت دولة المماليك ضرائب أثقلت كاهل الشعب وألقت بظلالها على المجتمع. كان محصلوا الضرائب يصادرون أموال الشعب وممتلكاته دون رحمة عليهم ولا إشفاق. (ضيف، ١٩٩٦م: ١٠٥) وممن صور لنا حالة البؤس والشقاء التي عاناها الشعب هو الشاعر المملوكي، البوصيري. لقد تمكن هذا الشاعر أن يرسم لنا صورة فكاهية خيالية تدل على مدى معاناة الناس إزاء جباة الضرائب. فقد كان للبوصيري أتانٌ أحبها الشاعر، فعندما جاءه محصلوا الضرائب ليأخذوا منه الأتان للضريبة، بدأت الأتان تخاطبهم وتحذتهم بلغتهم داعية إياهم إلى عدم الأخذ بها إذ طالما تكون حاملاً لا يجل لهم اصطحابها معهم:

يا أيها السيد الذي شهدت	أفاظه لي بأنه فاضل
ما كان مثلي يعيره أحد	قط ولكن سيدي جاهل
وبعد هذا فما يجلل لكم	ملكى فإني من سيدي حامل

(ابن تغري بردي، ١٩٨٩م: ٤/٣١٣)

لو تأملت في الشعر المملوكي لرأيت أن صورة الحياة في ذلك العصر صورة قائمة غطت آفاقها الغيوم المظلمة وعصفت بأرجائها العواصف الهوج، لقد شحن الشاعر المملوكي السخرية بأهاته وزفراته بحيث لو أصغينا إليها لسمعنا بالأنغام الحزينة التي تعزفها قيثارة كلماتها. تلك لأن الشكوى يُعد من أهم مقومات الفكاهة وتشكيلته البنوية فلا غرو إذ أن نشعر في هذا النسيج الشعري شعورين متناقضين جنباً لجنب؛ الشعور بالتسلية والتنفيس، والشعور بالحزن والأسى.

خذ الأبيات التي قالها البوصيري حول العمال الفاسدين في عصره مثلاً: فالشاعر

يتمنى لو كان له عليهم سلطان وسيطرة يقلع به أسنانهم واحداً تلو الآخر، لكي لا تبقى لهم سنٌّ يأكلون بها أموال الشعب ثم يندد بسلوكهم السيئ وسيرتهم الفاسدة فيشبههم بأسلوب ساخر، بالجاموس الضخم الذي يُحلب. لأنّ الأموال التي أكلها العمال ظلماً جعلهم كالجاموس السمين والضخم الذي يُحلب وتستدر منه كمية هائلة من الحليب:

لو كُنْتُ أملكُ أمرهم من غيرتي لم أبقَ للمستخدمين ضروساً
يرعون أموال الرعيّة بالأذى لو يُحلبون لأشبهوا الجاموساً

(البوصيري، ٢٠٠٧م: ١٥٣)

وبلغ الفكاهة أشدها حيث نسب الشاعر الحلوبة إلى العمال الفاسدين دون الجاموس وفي هذا التعبير الساخر فكاهة لطيفة لا تخفى على ذوى الفطنة والذكاء. هي أنّ الشاعر يريد أن يقول إنّ هؤلاء العمال الفاسدين لكثرة ما أكلوا من أموال الرعيّة ربّما قد خرجوا من صورتهم الإنسانية وأصبحوا كالجواميس لو حُلبوا أنتجوا الكثير من الحليب. فلم تحمّد شرارة نيران سخط البوصيري ضدّ العمال الفاسدين قط بل ازدادت حدّتها كلما تزايدت القبائح التي صدرت من الحكومة وعواملها. ممّا يزيد غضب البوصيري حدّةً وشرارة نفاق الحكومة وعمّالها، فإنّهم يدعون ويتظاهرون بأنّهم همّة الشعب ورعاتها مع أنّهم لم يألوا جهداً في خيانتهم وخذلانهم. ثم بادر البوصيري إلى سرد قصّة قد تكون خياليّة أو ربّما استقاها من واقع حياته.

يحكى لنا الشاعر أنّ لصاً سرق من أحد أصدقائه ثوبه ولم يكن للصديق سوى ذلك القميص المنهوب، فلزم البيت إذ كان يتعذّر عليه الخروج عارياً فتظلم إلى الوالى، لكنّ الوالى بدل أن يحكم لصالح الرجل البائس راح يسيء معاملته، كأنّ الوالى رأى بين يدي مكان الرجل العارى، عدوه اللدود قائد الجيش الصليبي أفرنسيس الذى كان الوالى يخافه ويكرهه شديداً! ولم يقف ظلم الوالى عند هذا الحد بل أخذ يطلب من الرجل الشاكي الشاهد أو الدليل الذى يثبت له ما يدّعيه كأنّ مثول الرجل أمامه عارياً لم يكن كافياً لإثبات دعواه:

لى صاحبٍ سرق اللّصُوصُ ثيابهُ ليلاً فبات بيته محبوساً
وشكا لوالى الحرب سارق بيته فكأنما يشكو له أفرنسيساً

وكأنه قاضٍ يقول لِخِصِمِهِ: هذا غَرِيمُكَ أثبتِ التَّفْلِيسَا

(البوصيرى، ٢٠٠٧م: ١٥٣)

٣. السخرية من القضاة الطامعين

لقد تأصل الفساد في جذور المجتمع المملوكى ودبت الفوضى في جسمه ديبب السوس في العظام. ومن ثم استشرى الفساد إلى كافة أنحاء المجتمع ففسد القضاة وانتشرت الرشوة وأصبح القاضى يحكم لصالح مَنْ لا حق له مقابل دراهم معدودة. ينتقد زهير وهو من شعراء الفكاهة في العصر المملوكى جنوح القضاة إلى الظلم والرشوة ويقول ساخراً إن القضاة في مصر يأكلون مواريث الأيتام أكلاً لماً، فإذا أراد أحد أن يحكم القاضى لصالحه ظالماً كان أو مظلوماً ليس عليه سوى أن يدفع له بعض الدراهم:

في مصر من القضاة قاضٍ ولهُ في أكل مواريثٍ ولهُ
إن رُمّت عدالةٌ فقلُّ مجتهداً من عدَّ له دراهماً عدَّ له

(الزهير، ١٩٨٠م: ٣٢)

وظف الشاعر المملوكى الجزار هلال الشوال مادةً خصبةً لخلق أجواء الدعابة تطرق الجزار بدوره إلى نزوع القضاة نحو الفساد وتلاعبهم بعقول الناس. فتحدث بأسلوب هازل عن قاضٍ أغمض عينيه على الحق، فإنه رغم شهادة العدول على رؤية هلال الفطر يحكم بعدم حلول عيد الفطر وبطلان الاستهلال، تبلغ الفكاهة ذروتها عندما يقول الشاعر كأن عيد الفطر من أموال اليتامى، يريد القاضى ضبطه وسلبه لنفسه جرياً على عادته في نهب أموال الآخرين ووضع اليد عليها. كأن الجشع بلغ في نفس القاضى مبلغاً لم يعد يقتنع بأموال الرعية في وجه الأرض بل أصبح يريد سلب الهلال في السماء أيضاً:

أ ترى القاضى أعمى أم تراه يتعمى
سرق العيد كأن الع يد أموال اليتامى

(الهاشمى، ١٩٧٨م: ٣٣٣)

٤. السخرية من بخل الأغنياء

كان المجتمع المملوكى يعاني من البخل كظاهرة اجتماعية منتشرة. مما زاد من أهميته

البخل كسلوك اجتماعي رديّ أنه كان ناجماً عن تفكك القيم وانهيار الأخلاق، ويدلّ على غياب حالة المواساة والضمان الاجتماعي بين أبناء المجتمع. فتحول البخل في ذلك العصر من ظاهرة فردية إلى ظاهرة اجتماعية تركت بصماتها وتبعاتها السيئة على حياة الفرد والمجتمع. (الركابي، ١٩٨١م: ٥٣) لم يغب هذه الظاهرة عن بال الشاعر المملوكي اليقظ، فإنه أخذ معه عدسته الشعرية إلى داخل المجتمع مصوراً نماذج البخل المتعددة في البيئة المملوكية شأن وسائل الإعلام في عصرنا الراهن. فيها هو صفيالدين الحلّي يضعنا أمام صورة البخل المتفشية في عصره مستخدماً الأدب الساخر ببراعة فائقة، فهو يرسم صورة كاريكاتيرية شوهاء من إنسان جشع بخيل يتطفّل على رعاة ويتناول من طعامهم رغم ادّخار تقوده قرشاً قرشاً. يأكل هو مع غلمانته ممّا تبقي لهم من طعام البارحة دون أن ينفق شيئاً من ماله. ثم أخذ الشاعر في وصف بخله بأسلوب يُعلّي الضحك على شفاه السامعين. فيقول لو وجد ذاك البخيل قطعة من اللحم في قدره لقرأ عليها آية الكرسي لتُبعد عنها كل سوء أو مكروه. من المستحيل أن يتمتع أحد من رغيقه بجواسه الخمس. فلو قدر لأحد أن يتمتع من خبزه بسمعه وبصره وشمّه فإنه لمن المستحيل أن يتمتع منه بلمسه أو ذوقه. عندما يريد أن يأكل الطعام يُغلق أبواب بيته كلها كيلا يفاجئه ضيف. فإذا جاءه ضيف على حين غفلة منه يحاول البخيل زجره وقهره بالتّجهّم والوجوم، فإذا فشلت محاولته وأصرّ الضيف على البقاء، يقدّم له من أسباب القرى، الدّبس والحبز فقط. فإن أخذ الضيف أكثر من لقمة طرده البخيل من بيته بركلة قويّة:

مملوكك اليوم أبو حبة	مُتَهَدِّدٌ فِي خِصَّةِ النَّفْسِ
يُزاحمُ الجُمّالِ في قُوتهِ	وَيَحْزَنُ الفَلَسَ عَلى الفَلَسِ
يَأْكُلُ وَالغِلْمَانَ في يَوْمِهِ	فُضْلَةً مَا قَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ
إذا رأى في قدره لَحْمَةً	تَلَا عَلَيْهَا آيَةَ الكُرْسِيِّ
وإن رأى في بيته فَاَرَةً	بَادَرَهَا بِالسَّيْفِ وَالتُّرْسِ
يَجِلُّ أن تُدْرِكَ رَغْفَاتِهِ	حَوَاسٌ مَن يَأْتِيهِ بِالْخَمْسِ
بِالسَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَالتَّشْمِ قَدْ	تُدْرِكُ دُونَ الذُّوقِ وَالتَّلَمْسِ

يَقْبُلُ عِنْدَ الْأَكْلِ أَبْوَابَهُ خَوْفًا عَلَى الزَّادِ مِنَ الْكَبْسِ
فَإِنْ أَتَى ضَيْفٌ عَلَى غِرَّةٍ قَابَلَهُ بِالتَّعْسِ وَالتَّكْسِ
يَلْقَى بِالتَّرْغِيبِ فِي الْإِحْتِمَاءِ وَبَعْدُ بِالْحُبْزِ وَالدَّبْسِ
فَإِنْ تَعَدَّ أَكَلَهُ لُقْمَةً رَأَيْتَ فِي أَضْلَاعِهِ رَفْسِي

(الحلي، ١٩٨٠م: ٣٦١)

والشاعر المملوكي الجزازي يستخدم بدوره البخل أداة لتوفير أجواء المداعبة والهزل فإنه يتحدث عن رجل بخيل لا يتحمل أن يرى أحداً يكسر رغبته ويأكل منه فأنت ترى دائماً رغبته كاملاً غير منقوص منه فإنَّ حبّه للخبز بلغ حداً لو شاء أن يصلي (وهو أمرٌ قلماً يحدث) لقال بدل "الله أكبر" "الخبز أكبر":

لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى رَغِيْبًا فَأَعْنَدُهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسِرُ
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى وَحَا شَاهُ لَقَالَ الْخُبْزُ أَكْبَرُ

(نقلًا عن ضيف، ١٩٩١م: ٣٧٧)

يَصُّورُ الْجَزَّارِ فِي مَقْطَعٍ آخَرَ مِنْ شَعْرِهِ الْفَكَاهِي بِخَلِّ أَحَدِ الْأَمْرَاءِ الَّذِي لُقِّبَ بِعُقُوبٍ، لِأَنَّهُ كَلَّمَا اسْتَعْطَاهُ ذُو حَاجَةٍ دَعَاهُ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَوَعَدَهُ بِأَجَلٍ غَيْرِ مَسْمُومٍ، وَلَا يَجْفَى أَنْ يَعْقُوبَ الَّذِي شَبَّهَ بِهِ الْبَخِيلَ هُوَ النَّبِيُّ يَعْقُوبَ الَّذِي صَارَ مَثَلًا فِي الصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْمَصَائِبِ، وَالْفَكَاهَةُ تَكْمُنُ فِي أَنَّ الْجَزَّارَ يَرِيدُ أَنْ يَلْمَحَ بِسُخْرِيَّةٍ طَرِيفَةً إِلَى أَنَّ يَعْقُوبَ الْبَخِيلَ كَانَ صَبُورًا مِثْلَمَا كَانَ يَعْقُوبُ النَّبِيُّ؛ إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ (ع) كَانَ يَصْبِرُ عَلَى الْحَنِّ وَالْبَلَايَا، وَيَعْقُوبُ الْبَخِيلَ كَانَ يَصْبِرُ عَلَى عَدَمِ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ، فَكِلَاهُمَا يَتَّسِمُ بِصِفَةِ الصَّبْرِ وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا بَوْنٌ شَاسِعٌ:

يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي لِنَدَى كَفَيْهِ كُلُّ الْجُودِ مَنْسُوبُ
لَا غَرَوَ أَنْ أَصْحَبْتَ تَأْمُرًا بِالْ صَّبْرِ الْجَمِيلِ، فَأَنْتَ يَعْقُوبُ

(نقلًا عن، ابن سعيد، ١٩٥٢م: ٣١٩/١)

٥. التفكُّه بالفقر

شاع الفقر في العصر المملوكي شيوعاً واسعاً، حيث ترك بصماته على حياة الفرد والمجتمع. كانت الفكاهة في ذلك العصر تعمل على تصوير مشاهد الفقر والبؤس كآلية

فنية ذات مفعول قوى وإيقاع مؤثر. فكما أشرنا سابقاً أخذت الفكاهة على عاتقها مهمة التعبير عن معاناة الفقراء وظروف حياتهم المأساوية. وكانت السخرية خير أداة لتجسيد الفقر المميت الذي تعيشه الطبقات المنكوبة والمسحوقة، والسبب في ذلك يعود إلى الطاقة الفنية الواسعة التي تتميز بها الفكاهة؛ فإنها منظومة فنية مكونة من الهجاء والعتاب والهزل، تمتلك رصيماً معنوياً هائلاً يستغله شاعر الفكاهة للتعبير عما يجيش في صدره.

فالشاعر المملوكي أبوالحسين الجزّار صور لنا الفقر الذي جثم على صدره معرّضاً بمعلقة شهيرة لامرئ القيس مطلعها: "قفانبك"، فإنه يقف ويستوقف ويبكى ويستبكي، ولكن لا منازل في "الدخول" و"الحومل" بل حُزناً على قميصه البالي الذي فقده. ثم أنّ حاجة الشاعر إلى السكن في حظيرة دافئة أشغلته عن حُب الأطلال والرسوم. يفضل الجزّار حيازة جبة متهرثة على امتلاك المال. فإنه تخلّى عن كل ما ينتمي إلى المجد واكتفى منه بقميص بال يقيه البرد القارس والحرّ القاسي:

وَدَّرَاعَةٌ قَدْ عَفَا رَسْمُهَا الْبَالِي	قَفَانِبِكِ مِنْ ذِكْرِي قَمِيصٌ وَسُرْوَالٍ
وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى قَفْدِ أَسْمَالِي	وَمَا أَنَا مِنْ يَبْكِي لِأَسْمَاءَ إِنْ نَأَتْ
بِتَوْضُوحٍ فَالْمَقْرَأَةُ أَعْظَمُ أَشْغَالِي	وَلِي مِنْ هَوَى سَكْنِي الْقِيَاسِرُ عَن هَوَى
وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدُ الْمُؤْتَلَّ أَمْثَالِي	وَلَكِنِّي أَسْعَى لِمَجْدٍ جَوْحَةٍ

(نقلًا عن: الصفدي، ١٩٦١م: ٢/٥٠٠)

لأبي الحسين الجزّار أبيات تصف للمخاطب فقر الشاعر وفاقته. يتحدث الشاعر عن لباس رث ارتداه الشاعر دهرًا طويلاً حتى بلى واندثرت معالمه كلها، فإذا وسخ القميص أخذ الشاعر يدوسه ويركله ويعصره ويدقه فيتحمّل الثوب عبر عملية الغسل عناءً شديداً دونما ذنب ارتكبه كأنه مجرم أخضع للتعذيب كي يعترف بذنبه، لكنّه ظلّ صامداً ولم يكثرث بما لقيه من العذاب الأليم. يتذكّر الشاعر أياماً كان قميصه جديداً قشيباً لارقعاً به فكان يرتديه ويمشى به محتالاً فخوراً لكنّه الآن أصبح وصمة عارٍ يجبينه ورمزاً لخشونة عيشه وفضاظة الحياة:

١. وهى المعلقة التي جاء في مطلعها: قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

لى نصفية من العمر
ظلمتها الأيام حكماً فأضحت
كل يوم يحوطها العصر والدق
أين يمشى بها القديم وذاك التي
حيث لا في أجنابها رقة قط
سنيماً غسَلْتُهَا أَلْفَ غَسَلَةٍ
فى العذابِ الأليمِ من غير ذلَّةٍ
مراراً وما تُقَرُّ بِعَمَلِهِ
هو فيها خَطَرَتى والشَّمْلَه
ولا فى أكمامها قط وصله

(نقلًا عن: ضيف، ١٩٩١م: ٧٨)

من أبرز الشعراء الذين وصفوا فقرهم بأسلوب ساخر "ابن دانيال"، فإنه وصف داراً له صغيراً يضيق بصاحبه قائماً، وقاعداً، ونائماً على جنبه. يتواجد في هذه الدار بعضاً يطير بجناحيه فإذا تمكّن من العروق يمتصّ الدماءً بوخزة أليمة مثلما يفعلُه الفصّاد. تتسابق الجرذان السريعة في داره كالخيول الجرداء، كما تصتفّ فيه الحنافس كالزئوج في طابور طويل. زد على ذلك كلّهُ أنّ ثياب الشاعر المرقّعه تبدو وكأنّها أرياش الهدهد الملوّنة:

أصبحتُ أفقر من يروح ويغدّى
فى منزلٍ لم يجو غيرى قاعداً
وترى البعوض يطير وهو بريشة
والفأر يركض كالخيول تسابقت
وترى الحنافس كالزئوج تصفّفت
هذا ولى ثوبٌ تراه مرقّعا
ما فى يدي من فاقتي إلا يدي
فإذا رقدت رقدت غير ممدد
فإذا تمكّن فوق عرق ينفد
من كلّ جرداء الأديم وأجرد
من كلّ سوداء الأديم وأسود
من كلّ لونٍ مثل ريش الهدهد

(نقلًا عن الصفى، ١٩٦١م: ٢/٥٦٠)

٦. التندير بالمضامين التغزليّة

لقد ذهب الفكاهة فى العصر المملوكى كلّ مذهبٍ وتفنّن الشعراء فى أنواع الفكاهة، فإنّهم نحووا بالغزل منحىً فكاهياً بشكل غير مسبوق. إذ احووا يتغزلون بالعجال والطاهى والجرّار والمؤذن ومن شابه ذلك من الذين لم يتغزل بهم الشعراء فى العصور الماضية عادةً ومّا لاريب فيه أنّ الدافع الوحيد الذى دفع بالشاعر المملوكى إلى هذا اللون الغريب من الفكاهة هو الهزء والسخرية وغرس الابتسامة على شفاه المستمعين. لكن هذا لا

يمنعنا من القول بأن البيئة التي راجت فيها هذه الظاهرة الأدبية بيئة تتخبط في الميوعة والاستهجان؛ إليك الآن بعض نماذج من الفكاهة بالغزل.

خُذ الشاب الظريف مثلاً حيث إنه يتغزل بطباخ مليح فاطر العين:
رُبَّ طَبَّاخٍ مَلِيحٍ فَاتِرِ الطَّرْفِ غَرِيرِ
مَالِكِيٍّ أَصْبَحَ لَكِنَّ شَغْلُوهُ بِالْقُدُورِ

(الشاب الظريف، ١٩٩٥م: ١٧٥)

يتغزل الشاعر نفسه في القطعة التالية بالمؤذن الذي خطف قلبه واستلب فؤاده واستنفد صبره، ومما زاد من وتيرة الدعابة في شعره أنه كلما طلب من المؤذن الوصال رفض المؤذن مكبراً:

وَمُؤذِّنٌ فِي حُبِّهِ أَنَا مُعْرَمٌ لَا أَصْبِرُ
كَلِّمًا طَلَبْتُ وَصَالَهُ أَضْحَى عَلَيَّ يُكَبِّرُ

(المصدر نفسه: ١٥٧)

لا يخفى أن هذه النماذج وما شابهها ناتجة من نتاج البيئة التي اضطرت فيها المعايير الأخلاقية والقيم المثلى، وأن الأحداث والظروف الصعبة التي عاناها المجتمع المملوكي قادتة نحو الانزلاق في حالة الفوضى والتردى ومن ثم انعكست على كافة جوانب الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والأدبية، مما أدى إلى شيوع الإباحية والميوعة في الأدب المملوكي شيوعاً واسعاً، والنماذج الشعرية التي ذكرناها توثق خير دليل على توغل المجون والمخالعة في نسيج الشعر المملوكي والتمكن من جذوره.

النتيجة

توصلنا من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:
اتسعت الفكاهة في العصر المملوكي اتساعاً كبيراً حتى أصبحت معلمة بارزة من معالم العصر.

امتزج الشعر الفكاهي في ذلك العصر بالعتاب والشكوى، فاكسب طابعاً دلاليّاً جديداً استغله الشعراء لبلورة حياة الناس المحافلة بالمصائب والرزايا.

غادر الشعر في العصر المملوكي بما فيه الفكاهة القصور الملكية الفخمة ودخل في حياة الشعب آخذاً الطابع الشعبي.

احتكَّت الفكاهة بالظروف السياسية والاجتماعية تنعكس فيها حيث صار الشعر الفكاهي في ذلك العصر مرآة صافية تعكس ما يميّز به المجتمع من أحداث مؤلّمة وكوارث مفاجئة.

مارست الفكاهة في العصر المملوكي الدور الذي تمارسه وسائل الإعلام في العصور الراهنة، فكان الشعراء يركّزون على ما يمسّ الحياة العامة من الفقر المدقع والظروف المعيشية القاسية شأن الصحافة في عصرنا الحاضر.

كان المجتمع المملوكي يعجّ بالمصائب والكوارث والأوبئة والمجاعة التي تعصفُ بحياة الشعب وتحصدُ أرواح الناس يومياً حتّى تحوّلت الحياة إلى كابوس مروّع. كان شعر الفكاهة فضلاً عن دوره الهزلي يصبّ النقد اللاذع إلى الحكام الفاسدين والولاة المنحرفين وقُضاة السوء.

كان للفكاهة بالإضافة إلى دورها الترفيهي دورٌ في التربية والإصلاح، حيث يرمى شعراء الفكاهة من وراء خلق أجواء ترفيهيّة، إلى الحثّ على إصلاح العيوب وتهذيب أخلاق العامة.

المصادر والمراجع

إبراهيم، زكريا. (١٩٥٨م). سيكولوجية الفكاهة والضحك. القاهرة: دار المصر للطباعة.
ابن تغري بردى، يوسف. (١٩٨٩م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دمشق: دار إحياء التراث العربي.

ابن نباتة. (١٩٨٠م). ديوان. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن منظور، أبو الفضل. (١٩٧٥م). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

أميرى، جهانگیر. (١٣٨٨ش). تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي والعثماني. طهران: مطبعة سمت.
أميرى، جهانگیر. نعمتي، فاروق. (١٣٩١ش). «التحامق في الشعر المملوكي». الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. العدد ٢٢. صص ٢٤-٤٤.

أميرى، جهانگیر. كيانى، رضا. (٢٠١٢م). «السخرية مكانتها ومضامينها في شعر رهي معيرى ومحمد مهدى الجواهرى؛ دراسة مقارنة». مجلة العلوم الانسانية الدولية للجمهورية الإسلامية الإيرانية. العدد

١٩. صص ٧٥-٩٦.
- أنس، وثام محمد سيد أحمد. (٢٠١٠م). الفكاهة والسخرية في الشعر المصري. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي.
- البستاني، فؤاد أفرام. (١٩٥١م). المجاني الحديثة. منشورات الأدب الشرقية. بيروت: لبنان.
- بكري، شيخ أمين. (١٩٨٠م). مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني. بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- الحلي، صفى الدين. (١٩٨٠م). ديوان. بيروت: دار الجيل.
- خربوش، حسين. (١٩٨٢م). «أدب الفكاهة الأندلسي؛ دراسة تطبيقية». منشورات جامعة اليرموك. صص ٣٤ - ٥٥.
- الخليلي، علي. (١٩٧٩م). النكتة العربية. عكا: منشورات دار الأسوار.
- الركابي، جودت. (١٩٩٦م). الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار. بيروت: دار الفكر المعاصر.
- سليم، محمود رزق. (٢٠١١ق). عصر سلاطين المماليك. الجمهورية العربية المتحدة: مكتبة الآداب.
- شوكينغ، لوين. (١٣٧٣ش). جامعه شناسي ذوق ادبي. ترجمه: فريدون بدره اي. طهران: توس.
- ضيف، شوقي. (١٩٩٦م). تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات - الشام). مصر: دار المعارف.
- _____ (١٩٩٦م). تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات - مصر). مصر: دار المعارف.
- _____ (١٩٩١م). الفكاهة في مصر. القاهرة: دار الهلال.
- صفدي، خليل بن أبيك. (١٩٦١م). الوافي بالوفيات. تحقيق: هلموت ريتز. بيروت.
- طالبی، جمال وآخرون. (١٣٩١ش). السخرية السياسية في شعر دعبل الخزاعی. الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. العدد ٢٥. صص ١٩ - ٣٩.
- العبادي، أحمد مختار. (١٩٨٦م). قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام. بيروت: دار النهضة العربية.
- العربي، سيد الباز. (١٩٩١م). المماليك. بيروت: دار النهضة العربية.
- معروف، يحيى. (١٣٨٧ش). «أساليب استعمال الفكاهة في التصاوير الفكاهية لدى أحمد مطر». الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. العدد ١٠. صص ٥٥ - ٧٧.
- موسى باشا، عمر. (١٤٠٩ق). الأدب في بلاد الشام. بيروت: دار الفكر المعاصر.
- الهاشمي، إسكندر. (١٩٧٨م). المنتخب من الأدب العربي. بيروت: دار صادر.
- _____ (١٤١١ق). تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي). دمشق: دار الفكر.